الشهامة في حب القريب

تعريب المعلم الفاضل يوسف ابي سليمان مدرّس العربية في كلّية القديس يوسف

(تتمّة لما سبق)

على انّ الراعي الصالح المذكور لم يبذل نفسهُ دون خرافهِ في هذهِ المرّة فقط. فما مرَّ عليهِ عشرة ايّام منذ أَبَلَّ الجندي الجدور وعاد الى وطنهِ سالماً شاكرًا للكاهن مخلّصهِ حتى اصاب القرية داءٌ اثقل من الجدري. فانَّ العدوّ كان يقترب من القرية بخيلهِ ورجلهِ لا يبقي ولا يذر

فتصدَّت لهُ في طريقهِ شرذمة من الفرنسيس والتحم القتال بين الفريقين فعلا الصراخ ودوت المدافع كالرعد القاصف وتساقطت القنابل على الارض كالبرد وحجب دخانُ البارود الحالك عينَ الشمس

ففي تلك الاثناء كان اهل القرية يذوقون الموت وينتظرون من دقيقة الى اخرى قدوم العدوّ لا يعرفون ما سينالهم بورودهِ من الويلات. ولم يكن الكاهن الغيور السابق ذكرهُ ليهملهم في ساعة المحنة بعد ان ضحّى نفسهُ لاجل جندي غريب. فجمع الرعية في الكنيسة واخذ يقوّيها ويُوطّد آمالها

وما عتَّم ان عزفت ألحان الحرب ولا عزيفَ الجنّ واذا باشباح كانها من قوم العمالقة لاحت منحدرةً في تلك الاودية لا عدَّ لها ولا عديد وهي لا تلوي على شيء حتى ادركهم الليل

فامر حينئذٍ المشير ان يأخذ الجند نصيباً من الراحة تلك الليلة قبل مواصلة السير الى الامام فأقام لذلك الحرس من الجهات الاربع فكانوا يطوفون حول الجيوش متيقظين كلهم آذان تسمع وعيون تبصر لئلا يبغتهم باغت او يكمن لهم كمين

على انَّ الحرس مع ما كانوا عليهِ من التحفُّظ لم يتمكّنوا في جوف الليل من نظر بطلين في عنفوان الشباب كانهما أسدان برزا من مكمن واحدٍ فاخذا يجولان ويفرّان من وهدةٍ الى وهدة ومن دغل الى دغل ومن غوسجةٍ الى غوسجة حتى دنوا من ذلك المعسكر فأطلقا عليهم النار اربعًا وكرّا على اعقابهما كالبرق وهما يزأران ولا زئير السباع

فرمى منهم ثلاثة أصابهم الرصاص في صدورهم فاصابهم اما الطلق الرابع فانهُ أصاب ضابطاً في امّ رأسهِ فأطار لهُ قبعتـهُ وفلق فلقةً من هامتهِ فخرّ وهو يصيح : دونكم بنـادق الصيد ذوات الطلقين . وللحال أطلق العدوّ على هذين البطلين نيّفاً وعشرين طلقاً فدوى الرصاص في آذانهما وسقط حواليهما ولم يمسّهما من ذلك شبـهُ اذى

ولمّا كان الصباح انطلقت كتيبة في طلب الجانيَين متوجهةً الى القرية فصـادفوا عند مدخلها ستة رجال من اهل المحلّ فقبضوا عليهم وساروا بهم الى شيخ الضيعـة فعظّم ضابطهم الامر وقال : « انت هنا صاحب الامر والنهي . إذن انا آتٍ اليك من قبل مولاي لاعلمك انهُ قد أطلقت النار على جنود جلالتهِ اربع طلقات . فاختر اما ان تدفع الينا أصحاب الجريرة فنقتلهم بمن قُتل من اصحابنـا واما ان نقتل ستة رجال صاروا في حوزتنا رقبضتنا ليكون ذلك عبرةً زاجرةً . ونُفسح لك في الجواب الى ظهر غدٍ . واعلم ان ضيعتك قد اصبحت تحت الحكم الحربيّ » . ثم تحولوا من هنالك يبحثون عن موضع يجعلونهُ مقتلاً

فاضطرب الاهلون وارتعدوا واخذت النساء تصيح وتنادي بالويل والثبور وطفق الرجال يلتمسون المخرج مما وقعوا فيهِ فلم يجدوا لهم مفرّاً من وجه العدوّ الذي كان قد دار بالقرية من اربع جهاتها . فتجمعوا في دار الشيخ وقضوا ما بين الصيحات والزفرات انهُ لا بُدَّ من تسليم الذين اوقعهم القدر بين ايدي الاعداء لانّ الجانيـين لم يكونوا من قريتهم ولم يكُ لاحدٍ معرفة بهما

هذا ولمّا يئسوا وحيطت منهم المساعي قضوا ذلك النهار ينوحون ويولولون ويتقلّبون على جمر الغضا متوقعين شرّ المنقلب

على ان الشيخ والكاهن وبعض أوجه الضيعة ذهبوا الى امير الكتيبـة وتوسّلوا اليهِ ان يعفوا عنهم مبيّنين لهُ ان الاهالي براء لا يعرفون الغدر فلم يسمع لهم مقـالاً . ثم اقبلت النساء ناشرات باكيات واطرحنَ على قدميهِ متوسلات فردّهنّ خائبات وأبى الّا الانتقام واعتذر انهُ مأمور يقوم بامر مشير الفيالق الملكيّة

غير انهُ قال للكاهن : « قـد سمحتُ لك ان تدخل على الاسرى واطلقت لك الحرّية في استعمال كل ما تراهُ مناسباً من امور دينك واسرارهِ »

فانطلق الكاهن الغيور على وجهه حتى اتى دار الشيخ حيث كان الساكين محبوسين في الطبقة السفلى. فدخل عليهم فوجدهم في حالة يبكي لها الصخر ويذوب الجلمود. فانهم كانوا مشدودين وثاقًا من ايديهم وارجلهم بحبل واحد وكان اثنان منهم مغميًا عليهما والثالث مُصابًا بجنّي ناهض تُرعده كالورقة في مهبّ الريح والرابع والخامس صابرَين على نكبات الدهر واما السادس فكان يظهر جَلودًا طلق المحيّا ثابت الجنان كأنهُ لا يبالي بما سينزل به وكان يناهز الاربعين من عمرهِ لهُ خمسة صبيان ايتامُ الامّ هو عضدهم الاوحد. فشرع الكاهن يُظاهرهم على الرزيّة ويضافرهم على البليّة ويعزيهم باسرار الديانة المسيحيّة ويحثهم على الصبر ويذكرهم باجر الصابرين

فاظهر هذا السادس في اول الامر غاية الصبر والجلد باصغائهِ الى اقوال كاهن الله الوقور. لكنّهُ ما لبث ان قنط وأخذ منهُ اليأس مأخذهُ فهبَّ يجدّف ويقذف من الشتائم افظعها ويلعن الطبيعة برمّتها. ثم انتقل من اليأس الى الحزن والتفجّع فبكى صبيتهُ طويلًا. ثم عاد الى التنوط فطفق يلعن ويقول: «سرْ ايها الكاهن وانثني ببني الخمسة لاموت واياهم بجريرة غيرنا فان يموتوا فرائس الظلم والنار خير من ان يموتوا فرائس الجوع والعار»

فلمّا يئس كاهن الله من تضميد جراحهِ وتسكين روعهِ ووضع السلام في قلبهِ. خرج من السجن ومشى حتى اتى موقف الكتيبة فاستأذن اميرها بالكلام فاذن لهُ. فقال وهو ذابط الجأش يلتهب قلبهُ التهابًا بنار الغيرة والحميّة:

«ايها الضابط لقد ساق اليك القدر ستة رجالٍ من ابناء رعيّتي فاسرتهم وحبستهم وعن قليل تميتهم ولا ذنب عليهم. انما تنكّل بهم بجريرة غيرهم لان الجانين فعلوا ما فعلوا ولاذوا بالفرار. وانما تُنزل بهم هذا العقاب الصارم تأديبًا لغيرهم واذ ذاك فلا فرق عندك ان قتلت زيدًا وعفوت عن عمرو او اهلكت هذا وصفحت عن ذاك. وانا ارى انهُ مهما كان الرجل منًا وجيهًا مقدّمًا في قومهِ مشمولًا عندهم بالكرامة كانت العقوبة أزجر وانفع. والان ايها الضابط لقد اتيتك ملتمسًا منك ان تعفو عن رجلٍ بموتهِ يموت صبيتهُ الخمسة وتقبلني بدلهُ في عدد الضحايا. نعم اننا كلينا بريئان غير انّ في قتلي عبرة اردع وانجع»

فاجابهُ: لا بأس من ذلك فحياتك بحياتهِ

ومن ثمَّ قادهُ اربعة انفار الى السجن ففكُّوا ذلك الرجل ابا الخمسة الصغار وقيَّدوا الكاهن مكانهُ فقضوا في سجنهم بقية ذلك النهار والليل الذي وليهُ

امَّا ما قاساهُ هؤلاء المنحوسو الطالع من الاوجاع وما تجرَّعوهُ من المرارات سحابة الليل فحدِّث عنهُ ولا حرج. غير انَّهُ ما ادبرت النجوم وطلع الفجر حتى كان ذلك الشهم قد احيا في قلوب ابنائهِ روح الشجاعة وصيَّرهم شهداء لا يرجون غير اكليل الشهادة تتوَّج بهِ مفارقهم يدُ ابن الله الفادي

وعند الظهر اخرجوهم وشيَّعوهم نحو الموضع الذي اعدُّوهُ لاعدامهم. ففتح رئيس الشهداء كتاب فرضهِ وجعل يتلو فرض الموتى وهو في مقدَّمة اصحابهِ والسكَّان سُجَّد منقسمون الى صفَّين ينظرون الى ابيهم نظرة الوداع ويذرفون الدموع السخينة

وما كادوا يبلغون بهم المقتل حتى اتفق ان مرَّ قائد الفيلق الذي انفصلت منهُ تلك الكتيبة فلمَّا رأى الكاهن مسوقًا الى القتل عجب وحار في امرهِ فامرهم بالوقوف يسيرًا فوقفوا

ثمَّ اختلى بالضابط واستفهمهُ فاخبرهُ بكلِّ ما جرى بينهُ وبين الكاهن والشيخ والرعيَّة فاستعظم القائد الامر واستفظع الفعل فامر بتأجيل مقتلهم وارسل فاعلم المشير الاكبر الذي كان عاقلًا رزينًا فامر هذا باحضار الكاهن اليهِ

فلمَّا حضر قصَّ عليهِ القصة باوجز عبارة فسمعها وهو يعجب من غيرة الكاهن وجراءتهِ وبسالتهِ. ثم قال لهُ: «ليس علينا ايها السيد من حرج في قتلك ولست انا قادرًا على استنقاذك من غيرك لكنَّني لا اريد موتك. فسِرْ وقل لابناء رعيَّتك انني قد برَّأت ساحتهم وعفوت بسببك عن المحكوم عليهم جميعًا ولا تعودوا الى مثل هذا من الآن فصاعدًا». فاثنى على المشير وقفل راجعًا الى قومهِ يبشر رفاقهُ بالعفو عنهم

فلمَّا توارى عن العيان قال المشير لاصحابهِ: «لو كان عند سائر الفرنسيس ما عند هذا الكاهن من الشجاعة والشهامة لكنَّا غادرنا هذه الديار بصفقة الخائبين»